رحيل

كاتبٌ يسّر الدخول إلى مدينة المعرفة

وداعاً أحمد الطويلي

اختار الكاتب التونسي الذي غادر عالمنا قبل أيام ممارسة المعرفة الميسّرة والانحيازَ إلى التبسيط، تاركًا النّصوص تنطق بذاتها عما في خباياها بعد أن يستجلبَها من كنوز التراث، ويوفّرها للقارئ غير المتمكن حتى يحيطَ بموضوعه سريعًا

نجم الدين خلف الله

أتذكّر المرّةَ الأولى التي رأيتُ فيها اسمَ الكاتب التّونسي أحمد الطويلي (1942-2022)، الذي غيَّبه الموت في الثالث عشر من الشهر الجاري. يعود ذلك المشهد إلى أكثر من ثلاثة عقود، حيث انتقش اسمه على كتاب «الإمتاع والمؤانسة»، لأبي حيّان التوحيديّ في طبعة ميسّرةٍ، مختصرة عن تلك التي أنجزها أحمد أمين وأحمد الزين سنة 1939. طالعتْ أجيال عديدة من التونسيين، طلبة وتلاميذ، تلك الليالي المؤنسة، ولم نكن نعلم وقتها ما كان وراءها من جهد جَهيد في النشر والنقل والتبسيط من أجل إتاحة عيون التراث الأدبيّ لقارئيه من النّاشئة. فهل كلّ تبسيطٍ خيانة تُشوّه العملَ وتقضي على عمقه؟

تؤكّد المسيرة العلميّة لأحمد الطويلي العَكس تمامًا، حيث وازن بين عمق التحليل وتبسيط المعلومات. يَفَع هذا الرّجل في رحاب مدينة القيروان العريقة حيث تلقّى تكوينه الأوّل، ثم أكْمله في أروقة المَعهد الصادقيّ بتونس العاصمة حيثُ أتقن اللسان الفرنسي، وكلّل ذلكَ كلّه بسنواتٍ خَصيبة في كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة بتونس، حيث اغترف من كنوز التراث العربي عمومًا والتونسيّ خصوصًا، وتمكّن من كافة فُروعه المعرفيّة والتاريخيّة، فضلاً عن تضلّعه في الصّحافة.

تركَ الرّجل قرابة 130 مُؤَلفًا ما بين تحقيق علميّ وتَبسيط ودرس تاريخيّ وإبداع تخيّلي، بما يجعل من مَسيرته العامرة ظاهرةً، من المشروع أن نتساءَل عن طبيعتها ومناهجها، وهي التي امتدّت على أكثر من خمسة عقودٍ. وإذا ما أردنا تلخيصها في مبدأ جامع، فسيكون تبسيطَ المعرفة التراثيّة، التاريخيّة والأدبيّة، وجعلها جزءًا معيشًا في خضم الحياة اليومية.

وقد تبدو هذه المهمّة في ظاهر أمرها سهلة. ولكنّها، عند التأمّل، دقيقة. ذلك أنّ الطويلي أخذ على عاتقه مهمّة إخراج الكتب التراثيّة من بروجها العاجيّة وتقريبها للناشئة في شكل مُبَسّط، وهو مجهود يَختلف جوهريًا عن ذاك الذي نهض به مجائله الباحث المصري عبد السلام هارون مثلاً، لأنه كان ينجز طبعاتٍ مبسّطة لتلك الكتب التي يعسر إيجادها في المكتبات العاديّة، مثل «طوق الحمامة» لابن حزم و«مقامات السيوطي» و«الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيّان، فهو يلخّصها ويشذّبها، دون المساس بجوهرها، جاعلاً منها كتبًا مدرسيّةً، في متناول آلاف التلاميذ يطالعونها كأجزاء من المقرّرات الدراسيّة.

ومن جهة ثانية، انصبّت جهودُه على تحقيق سائر النصوص التي تتعلّق بتاريخ تونس وحضاراتها، هذا القُطر الذي تَعاقبت على التفاعل فيه، منذ الفتح الإسلامي، أكثر من سبع دُول وعهود، آخرها العائلة الحسينيّة، أي: عائلة البايات ذوي الأصول التركية الذين سادوا حتى 1957، فضلاً عن الدولة الفاطميّة ذات التوجّه الشيعي، وقبلها دول كالصنهاجيّة والأغلبية.

أحمد الطويلي في أمسية تكريمية في «نادي الطاهر الحداد»، 2018 (تصوير: حكيم زريّر)

وقد ازدان التاريخ الثقافي لكل عَصر من هذه العصور بتآليف العديد من الشعراء والكتاب والفقهاء، إلاّ أنَّ تراثَهم الثريّ هذا لم يُحقق كله، ولم يخرج إلى دائرة الضوء، بل بقي سجين المكتبات والمخطوطات النادرة. ولذلك أكبّ عليها الطويلي نافضًا عنها غبار القرون وكاشفًا بفضلها عن الكثير من تفاصيل الحياة الفكريّة لهذا البلد. وأهم أعماله في هذا الصدد تحقيق كتب أحمد بن أبي الضيّاف (1804-1874) ورسائله وحتى ديوان شعره، والجنرال حسين ومحمد الحشايشي وغيرهم من أعلام الفترة العثمانيّة الذين قادوا حركة تحديث البلاد.

وأما ثالث هذه الحقول فيتعلق بالحياة اليوميّة بالمعنى الذي نظّر له عالم الاجتماع الفرنسي ميشال مافيوزلي، فقد ركّز في الكثير من دراساته، مثل كتاب «في التراث الشعبي التونسي: عادات وأغانٍ وأمثال في السياسة والفلاحة والمرأة»، على كل المظاهر التي ميّزت مستويات المعيش اليومي وتأثيرها، كدراسته للمَلابس والشارات والمواقع والمعالم الأثريّة، مع اهتمام خاصّ بالأعياد والمناسبات كاحتفالات المولد النبويّ التي يشرف عليها قادة البلاد، وطقوس شهر رمضانَ وعيديْ الفطر والأضحى، مما يجعل من هذه المباحث أقرب ما تكون إلى إثنوغرافيا أو أنثروبولوجيا تاريخيّة تستعيد الأنظمة الرمزيّة التي طوّرتها مجتمعات تونس لبناء خصوصيتها. كما سلط الطويلي الضوء على البنية الاجتماعية في تونس وما شهدته من عادات وتقاليد، كان زميله عثمان الكعاك قد أشار إليها. وتمثل هذه الأعمال ما يُشبه الموسوعة الكبرى لتاريخ تونس وحضارتها، كلّ كتاب يعرض عنها وجهًا مختلفًا بالاعتماد على الوثائق والصّفحات المجهولة.

> ترك قرابة 130 مُؤلفاً ما بين تحقيق ودرس تاريخيّ وإبداع

> أخذ على عاتقه مهمة تقريب الكتب التراثيّة للناشئة

ويظلّ الميدان الذي تألق فيه الطويلي كتابةَ السّير والتراجم، فقد خصّص أكثر من خمس وعشرين ترجمةً، أي سيرة تاريخيّة، لأهمّ الشخصيات التي حفل بها التاريخ التونسي الوسيط والمعاصر، مثل ابن خلدون وعلي الحصري القيرواني والطاهر الحداد وعثمان الكعّاك وغيرهم كثير، كاشفًا، في كل سيرة، ليس فقط عن نسيج الأحداث لحيواتهم، بل وعن تشابكها ضمن البنى السياسيّة والثقافية وتأثيرهم فيها وتأثرهم بها.

وقد يبدو للناظر في سلسلة أعماله أنها تقتصر على تونس، تاريخِها ورجالها، إلا أنّ هذا الوهم سرعان ما يتبدد حين نستذكر جهودَه الواسعة في إحياء الأدب العربي القديم والحديث على حدّ سواء، حيث خصّص دراسات مستفيضة عن أبرز الوجوه التي بَرعت في النثر الفني مثل الجاحظ أو الشعر مثل المتنبي والمعرّي.

كما قد تخللت مسيرة التحقيق التاريخي هذه ورافقتها أعمالٌ أدبيّة صرفة، من الخيال سداها، أسلوبها سَردٌ روائي سلس، بثَّ فيها خلجات قلبهِ وذكرياته وملاحظاته، لا سيما أثناء ترحاله الواسع في أقطار الأرض، فقد اشتغل الراحل أستاذًا زائرًا في كل من قطر وكوريا الجنوبيّة وغيرهما، دوّن خلالها انطباعاته في صدق وألمعية، مثل كتاب «من سيول إلى سنغافورة، رحلة إلى عشرة بلدان في الشرق الأقصى»، فكانت رحلاته تلك فرصة لمقارعة الثقافات البعيدة بما لديه من رصيدٍ معرفيٍّ.

(كاتب وأكاديمي تونسي مقيم في باريس)

النص الكامل
على الموقع الألكتروني

الانحياز إلى التبسيط

أُخِذ على الكاتب والمحقّق التونسي، تبسيطُه للمعارف. والمَأخذ وجيهٌ إذا ما اعتبرنا أنَّ الهدفَ من الأبحاث التاريخية هو التحقق من أدقّ دقائق التفاصيل التي لا تهمّ إلا أهل الاختصاص. وأما إذا كان العمل موَجّهاً الى الجمهور العريض، فالأمر يمثّل خدمة جليلة. ولا شك في أنّ ما قام به أحمد الطويلي ليس سوى حجر أساس في إظهار رَصيد ضخم ووضعه في متناول الباحثين. ويكفيه أن يسّر الدخول إلى مدينة المعرفة.

يوميات

طبيعة جميلة ومواطنون قاتمون

صباح فلماني

مقطع من «على قيد الحياة مع أزهار حمراء» لـ بانايوتيس تيتسيس (اليونان)، زيت على قماش

كان الخروج لرؤية الصباح الوليد، عادة قديمة رافقتني منذ الصبا. فلقد ولدت في مخيم، تحوطه غابة أحراش

باسم النبريص

أخرج لأملأ تيرموس القهوة: رذاذ خفيف في الخارج. صالة الطعام مطفأة. أنتظر على الباب الخارجي، بجوار ثلاجة الماء.

دقائق ويأتي الموظف الشاب على الموعد تماماً: السابعة وعشرين دقيقة من كل يوم. أتلقى تحية الصباح بأحسن منها.

يفتح الموظف الباب، وأدخل من إحدى ضلفتيه عبر ممر حديدي.

النور الآن مشعل في الصالة.

أتجه نحو صنابير الماء، لأغسل التيرموس من بقايا قهوة الأمس.

أغسل يدي أيضاً، تنفيذاً للتعليمات الصارمة، التي تسيّر البلد، منذ منتصف الأزمة.

ألاحظ، بدهش، خمسة من الموظفين الشباب الجدد، وثلاثة منهم بذقون وعراض المناكب، يجلسون متقاربين جدا، ويتكلمون اللغة النيدرلاندية، لغة الجانب الفلاماني البرجوازي من المملكة.

اللغة، التي تبدو لي، مشفرة ومحورة عن اللغة الإنكليزية. أستغرب وجودهم بهذا العدد، فقط لكي يُحضّروا سخان القهوة والشاي الكبير، وكي يراقبوا المسافة الآمنة بين الداخلين.

مع أنه ليس ثمة من داخلين ولا خارجين. على الأعم، لا يأتي أحد سواي لتناول قهوة الصباح، فلا أحد يستيقظَ ويقطع ساعة النوم الهنيئة هذه، بعد سهر طاول الفجر، من أجل كاس قهوة عديم الطعم والشذى.

بل إنهم حتى، لم يكونوا، أقصد اللاجئين، ليأتوا كي يأخذوا وجبة الفطور الروتينية البائسة.

أخرج من الصالة، وقد توقف الرذاذ الجميل. أصِلُ غرفتي وأتناول شريحتَي خبز أبيض (لعدم توافر الأسود، حتى لأصحاب المرض) وبعض المربى غير مسحوب السكر، وأخرج مرة ثانية، كي أدخن وأشرب وأرقب الطقس، أمام الساحة المعشوشبة، كل هذا جميعاً في آن.

لكم فتنتني من قبل مشاهدة الصباح الباكر، وكيف تنبثق لوحات شفقهِ البديع وتتحول درجاتها اللونية، من دقيقة لأخرى. ان الخروج لرؤية الصباح الوليد، عادة قديمة رافقتني منذ الصبا. فلقد ولدت في مخيم، تحوطه غابة أحراش، وأشجار كثيفة من الكينا والأكاسيا مزروعة على كثبان رملية صفراء، لا أجمل ولا أبدع.

> عادة ما زالت ترافقني وتخفف عني عبء الساعات القادمة من النهار

عادة ما زالت ترافقني، وتخفف عني عبء الساعات القادمة من كل نهار.

أفكر في هذا، وأعود فأضع الكأس تحت السرير، وأخرج لأتريض في محيط الحقول القريبة، حيث أشاهد سكان المنطقة المترفة، من جميع الأعمار، وهم يركضون أو يعتلون أعنّة الدراجات الهوائية بموتور. مثلما أشاهد الخيول ترعى عشبها المندى تحت حوافرها، في مزارع كبيرة مخصصة لها، وقد ولدت بعضُ إناثها، والرضيع أبو أسبوعين يسعى رشيقاً بجوار أمه.

أو الغزلان وهي تشرئب بأعناقها، في هدأة الوقت، كي تراني وأنا أتأملها من خلف سياج مرصع بزهرات صفراء ناصعة الصفار.

إلهي!

إن لم تكن هذه الجنة الموعودة، فما هي الجنة؟

ويا إلهي!

كيف يُقدَّر لكائن فانٍ مثلي أن يفهم هذا التناقض غير المقبول: طبيعة جميلة ومواطنون قاتمون، لا يضحكون، لا فحسب للرغيف السخن، وإنما للوردة الصفراء الدالعة وسط خَضار معتنى به جيدا؟

(شاعر فلسطيني مقيم في بلجيكا)

إطلالة

حيث يتراجع خطاب الهوية

حدود الترجمة

تُبدي الترجمةُ عدمَ اكتراثها بأمر استحالة أن تقول اللغة المنقولُ إليها ما تقوله اللغةُ المنقولة، لأنّها تعي أنّ مهمَّتَها تتخطى العبورَ اللغوي

مزوار الإدريسي

لا يتردَّد كثيرون في تعريف الترجمة بكونها جسراً بين الثقافات، يَضمن للأفراد والمجتمعات التعارُف، والتفاهمَ، والحوار، والتعايش، وتبادُل الخبرات. وواضح أنّ هذا الحَدَّ، أي التعريف، لا يستنفد كلَّ إمكانات هذه الممارسة، التي يلتبس فيها الوافد بالمُستقبِل، وتتداخل فيها الإثنيات، ليتراجع أمام فعاليتها خطاب الهوية. والواقع أنّ وجود الترجمة نتيجة منطقية للتعدّد اللغوي، الذي سببُه الشّتات البشري، منذ بابل حَسَب الأسطورة، وما نجم عنه من اختلافات ثقافية ولغوية، تسبّب طرح إشكالات الحدود، التي تُقيمُها ثقافاتُ العالَم ولغاتُه فيما بينها، فتُسيِّج بهما نفسَها، بغاية التميُّز عن سواها، ما يُثير قضية استحالة الترجمة، نظراً لصعوبة المرور من لغة إلى لغة أخرى.

ومع ذلك، فإنّ الترجمة تكشف، في أثناء حضورها، عن كونها نشاطاً بشرياً متواصِلاً، وأنها لا تُعنى بأمر العبور اللغوي، لأنها تجعل نُصب عينيها أنْ تطرح رؤيةً للعالم، وفلسفةً، وثقافة متفرِّدة، تتهاوى أمام زحفها الحدودُ، التي تسعى الثقافات المحافظة إلى إقامتها، تحت ذريعة الحفاظ على الهوية؛ وبذلك تُبدي الترجمةُ عدمَ اكتراثها بأمر استحالة أن تقول اللغةُ المنقولُ إليها ما تقوله اللغةُ المنقولة، لأنها تعي أن مهمَّتَها تتخطى العبورَ اللغوي، ولأنها ترى في مسألة إثباتِ وجودِ حدٍّ لها خطأً فظيعاً، لأن همَّها الأساسيَّ نَقْلُ النص، أو الخطاب، بل هو نقل الثقافة أيضاً، إلى فضاء ثقافي مُغاير يُدخِلُ إليه الجِدَّة.

هذا المعطى أعلاه، يؤكده الروائي الأميركي پولْ أوسْتِر، في حوار عميق وثريّ أجراه معه الفرنسيّ جيرار دُو كُرْتانْز، ونُشِر في كتاب بعنوان «ملف پولْ أوسْتِر: عزلة المتاهة». يلفت أُوسْتِر الانتباهَ إلى أثر الترجمة في الحياة الأدبية، بتركيزه على التفاعل بين الثقافات، الذي سبَبُه رواج الترجمة، التي تُعبِّرُ عن أثرها في شخصِه قبل أعمالِه؛ فهو في أثناء تكوينه الجامعي، درس الآداب الإنكليزية والفرنسية والإيطالية، واستقر في فرنسا شاباً، وعاش هناك سنوات طويلة، كان خلالها يكتب الشعر والترجمة والنقد والسيناريو، فكان بوتقة تنصهر فيها أجناسٌ وفنون عديدة، لا تُفلِح في جمعِها سوى الترجمة باقتدارها العَرَضاني.

يُفنِّد أوستر وهْمَ الحدّ في الترجمة باستحضار الاختراق، الذي تُحدِثه الأخيرةُ في النسيج الثقافي، فهي لا تهادن الأوضاع، ولا تستقر على حال، لأن لها صيرورة، ولأنها في نشاط دؤوب وحركية متواصلة، ويُمثِّل لديناميتها بشعر السوناتة، فيقول: «وُجدت الترجمات منذ ظهور المَطبَعة. هكذا كان الكُتَّاب الأميركيون، على سبيل المثال، مثلما قُرّاؤُهم، يقرؤون لكُتّاب آخَرين أيضاً، لُغَتهم الأمُّ هي الإنكليزية، وكانوا يخضعون لتأثيرات مُختلِفة عن بلدهم الأصلي؛ ويكفي المرءَ أن ينظر إلى تاريخ تطوّر السوناتة فقط: السوناتة شكل وُلِد في إيطاليا، ثم انتشر في أرجاء أوروبا، وتولَّد عنه، من بين أشكال أخرى، السوناتة الفرنسية والسوناتة الإنكليزية».

في هذا المثال، يشدد أوستر على العامِّ مُشخَّصاً في السوناتة، قَبْل الانتقال إلى العينيّ مُمَثَّلاً في كُتَّاب بعينهم، ليبرهن على استحالة «وضع أبواب للبوادي»، وفق عبارة ثربانتيس، أي الإتيان بالمُستحيل، وهو إيقاف تمدُّد الترجمة وتأثيرها حيثما تَحُلّ؛ فهذا «فلوبير، الفرنسي، أثَّر كثيراً في جُويْس الإيرلندي، الذي أثر بِدَوره كثيراً في فُولكنر من أميركا الشمالية، الذي أثر كثيراً في الأميركي الجنوبي غابرييل غارثِيَّا ماركيز، الذي أثر كثيراً أيْضاً في طُونِي مُورِّيسُون. لا وجودَ للحُدُود! لم يَخطر ببال أيٍّ كانٍ أن يقول إن طُونِي مورِّيسون أكثر كُتَّاب أميركا الشماليّة تأثُّراً بالأدب الكولومبي! تلك الحدود عبثيّة».

> تخترق الترجمة الحدود التي تسعى الثقافات المحافظة لإقامتها

هكذا، تُبرِزُ الترجمةُ أنها نشاطٌ لا يحُدُّه زمانٌ، لأنّها منذ أن ابتكر الإنسان اللغةَ وهي تحْضُر بشكليْها الكتابي والشّفهي، في سياقات متنوِّعة، لكنّ الترجمةَ، بصِفتِها تحقُّقاً نصِّياً، لا غروَ أنّ لَها حدّاً في الزمان، وأنها تشيخ لتَحلّ مكانَها ترجماتٌ أخرى.

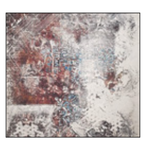

(أكاديمي ومترجم من المغرب)

لوحة لـ رونيه ماغريت

فعاليات

حتى الثالث والعشرين من الشهر الجاري، يتواصل في «قاعة الباب سليم» بساحة متحف الفن المصري الحديث في القاهرة معرض **التوقيت ليس غرينتش** للتشكيلي **مجدي أنور** (1968). يضمّ المعرض، الذي افتُتح الثلاثاء الماضي، ستين لوحة تشتبك فيها الحروف العربية مع رموز من الحضارة الفرعونية أو اليونانية.

الرواية والشعر في الأدب العربي الأمريكي عنوان جلسة حوارية تنظّمها «مكتبة قطر الوطنية» في الدوحة عند الخامسة من مساء الأحد المقبل ضمن الفعاليات المصاحبة للمعرض الذي تقيمه المكتبة التراثية بعنوان **المهاجرون العرب في الولايات المتّحدة: السعي وراء الحلم الأميركي**. تشارك في الجلسة الكاتبتان **سارة غوالاتيري** و**هيلين زغيب**، فيما يديرها **يوسف الأنصاري**.

منذ 11 من الشهر الجاري، تُعرض في «المدرج الروماني بالجم» (وسط تونس) تنصيبة عملاقة بعنوان **المجالد** أنجزها الفنان التشكيلي التونسي **محمد سامي بشير**. تتمثّل التنصيبة بتركيب سلسلة دوائر رخامية زرقاء متجاورة على مسافة أكثر من مئة متر، توحي لمن يشاهدها من المدارج بأنها تعكس السماء.

يتواصل في «الأكاديمية الملكية للفنون» بلندن معرض **خطوط الضوء: الصور المعمارية لهيلين بينيه** حتى الأحد المقبل. يتضمّن المعرض، الذي انطلق في تشرين الأول/ أكتوبر الماضي، صوراً التقطتها المصوّرة السويسرية بينيه خلال ثلاثين عاماً لمعماريين مثل **زها حديد** (العمل) و**دانيال ليبسكند** و**بيتر زومثور**.